

الأغنية الشعبية الجزائرية و دورها في التأسيس للأدب الشعبي

موال أغاني العمل أنموذجا

: ظاهر جبار زهرة

جامعة خميس الجليلي بونعامة _ خميس مليانة (الجزائر)

حورية قايش

جامعة خميس الجليلي بونعامة _ خميس مليانة (الجزائر)

مقدمة :

تعد الأغنية الشعبية جزءا من ثقافتنا , فهي تعكس جانبا من عاداتنا وتقاليدنا, كما أنه تختلف عن سائر أشكال التعبير الشعبي كونها تؤدي عن طريق الكلمة و اللحن معا , لا عن طريق الكلمة فقط و ما يهمننا في هذه الورقة البحثية الجانب الكلامي كونه يدخل في اختصاص أصحاب الدراسات الفلكلورية و الاجتماع

تخفف عن ألمه في موضع الحزن , وتزيده
سعادة في موضع الفرح.

_تعريف الأغنية الشعبية:

و قد تعددت تعريف الأغنية الشعبية , و
من الباحثين الذين أولوا عناية كبيرة و كرسوا
جهودهم لدراسة الأدب الشعبي بصفة عامة و
الأغنية

التصقت الأغنية الشعبية بالحياة
الاجتماعية الجزائرية فسارت جنا إلى جنب مع
الانسان البدوي , حاضرة في كل مناسبة ,

تألفها اللحني و تداخل إيقاعاتها الصوتية و
الموسيقية , كما تجمع في داخلها بين قيم
الشعب المتوارثة و أسلوب المعيشة , وتعبر في
نفس الوقت عن عادات و تقاليد المجتمع بما
تحتويه من قيم أخلاقية و روحية.

الشعبية خاصة الباحث (ألكسندر هجرتي
كراب) و الذي عرف الأغنية الشعبية على أنها
"قصيدة شعرية ملحنة مجهولة المؤلف ,
كانت شائعة بين الأميين في الأزمنة الماضية
و ما تزال حية في الاستعمال".¹

2_ تطور الأغنية الشعبية الجزائرية:

الأغنية الشعبية فن من الفنون التي تطورت
مع تطور فن الرقص و الطقوس و التي ارتبطت
منذ البداية "بعلم العقائد و الطقوس و التي
خدمت بالدرجة الأولى إشباع الحاجات
الاجتماعية و النفسية و الروحية.....و لا تتوقف
على المواضيع الروحية فحسب بل تمتد الى
المواضيع الدنيوية و المحرمة"⁴.

و نجد هذا التعريف يتوافق إلى حد بعيد مع
ما ذهبت إليه الباحثة (أرنولد هاووزر) إذ اعتبرت
أن أي أغنية يفترض أن تكون مجهولة المؤلف
لأنها من صنع الشعب و ذلك يتضح في قولها
أن " عدم نسبة الأغنية إلى مؤلف معين دليل
على خلقها التلقائي من قبل جماعة سرية دونما
فردية أو وعي"².

و الأغنية الشعبية قديمة قدم الانسان
,حيث كانت غذاء روحيا له و لحنا ينبعث من
وتر الحزن في قيثارة الحياة , وصدى للتطلع
نحو المستقبل , و بحرا تتلاطم فيه أمواج
التفكير الشعبي ببساطة و عفوية .

و قد أكد بعض الباحثين العرب على أن "
الأغنية الشعبية هي قصيدة ملحنة مجهولة
,بمعنى أنها نشأت بين عامة الناس في أزمنة
ماضية , و بقيت متداولة أزمانا طويلة"³, و
تؤدي الأغنية الشعبية كضرورة من ضروريات
الحياة اليومية للمجتمع , كما تستخدم كوسيلة
من وسائل التعرف على المستوى الفكري
للمجتمع من خلال تركيباتها اللغوية و الأدبية و

أ_ جماعية: أي أنها حتى ولو كانت من إنتاج الفرد فهي دائماً خاضعة للتبديل والتعديل والإضافة.

ب_ غنائية: فهي ذاتية تتناول موضوعاتها بطريقة جديدة و ألوانها كثيرة تشبه ألوان الصناعة الشعبية الريفية.

ج_ انفعالية: تتصف الأغنية الشعبية بالانفعالية البسيطة غير معقدة و كذلك تتميز بأسلوبها البسيط جداً

د_ تنوع مواضيعها: ليس الفرح هو المزاج العام للأغنية الشعبية إنما الكثير من الأغاني الشعبية درامية تعبر عن قسوة الحياة و مرارتها و مأساتها.

بالنسبة للخاصية الأولى المتعلقة بجماعية الأغنية الشعبية فهي من أهم الخصائص الأساسية لا للأغنية الشعبية فقط بل لكل التراث الشفوي لأنه من صفات الجماعة لا يعرف له مؤلف إلا في الحالات النادرة.

و الأغنية الشعبية بطبيعتها غنائية, ذاتية, انفعالية, و غير مدونة يتم انتقالها عن طريق المشافهة " و لا يمكن

أن توجد بشكل نهائي و أصيل فهي دائماً تتغير و تتبدل مرارا أثناء عملية الانتقال بالمشافهة, وهي تارة تزداد غنى نتيجة لهذه التغيرات...."⁷.

و قد أضاف الدكتور عبد القادر ناطور عدة خصائص أخرى يمكن اختصارها فيما يلي⁸:

و لم تحض الأغنية الشعبية باهتمام خاص من طرف المؤرخين القدامى, خاصة مؤرخي الموسيقى إذ انصرف اهتمامهم إلى الغناء الكلاسيكي اعتقاداً منهم أنها لا تستحق الاهتمام لا في مادتها الغنائية و لا في شعرها, لأنها لا تمثل المستوى الأدبي و الفني.

و لكن لا يمكن أن ننكر فضل بعض المؤرخين إذ تطرقوا إلى الأغنية الشعبية بإسهاب و تحدثوا عنها من خلال حديثهم عن مختلف الألوان الغنائية الأخرى "أما أن يفرد لها كتاباً و يقصروا الكلام عليها, فهذا أمر لم يحدث في التاريخ الحديث"⁵.

و قد الشعب الجزائري حياته في أغانيه, فلم تكن الأغنية الشعبية مجرد ابداع فني في نظره, و إنما كانت لوحة تصور مختلف أوجه الحياة, فهي تعبير مشترك لها يخطر في ذهن الناس فهي رفيقة حياة الانسان في بيته و حقله و مرعاه فصورت بذلك روح الشعب الذي ينتمي إليه الانسان الاول و أصبحت مع مرور الوقت تشكل إرثاً وطنياً يضاف إلى هذا الإرث في كل حقبة من التاريخ, و بهذا صارت باقة لتقاليد طوت الأيام منها على أشياء و أبتت على أشياء, بحيث أصبحت الأغنية الشعبية لوحة من لوحات تاريخ الشعب و مراحل تطوره.

3_ خصائص الأغنية الشعبية الجزائرية :

تتصف الأغنية الشعبية بعدة صفات كان قد ذكرها الباحث الفلكلوري كراب و يمكن تلخيصها فيما يلي⁶

الأغنية الشعبية الجزائرية و دورها في التأصيل للأدب الشعبي موال أغاني العمل أنموذجا

4_ أنواع الأغنية الشعبية:

تختلف أنواع الأغنية الشعبية باختلاف وظيفتها و نذكر منها

أ_ أغاني المناسبات الاجتماعية : و هي أغاني تغنى في الأفراح والمناسبات كالميلاد و السبوع , والختان و الزواج ... الخ

ب_ أغاني العمل : و هو موضوع ورقتنا البحثية و سنحاول أن نتطرق إليه بالتفصيل .

تعد أغاني العمل شكلا من أشكال التعبير الانساني المتعدد الجوانب و المتأصل في الطبيعة البشرية , و هذا النوع من الغناء قديم قدم الانسان إذ كان يتداول بين العمال أثناء الزرع أو الحصد أو الطحن أو البناء , فكان المسلمون في القديم يرددون الأغاني أثناء بناء المساجد (بناء مسجد المدينة) أو حفر الخنادق⁹

و من أهم مميزات أغاني العمل:

__ أنها تطول مع طول العمل و لهذا نجد أن أغنية العمل قد تفقد الوحدة الموضوعية

__ أنها جماعية يرددنها الرجال والنساء أثناء العمل خاصة العمل الزراعي كمواسم الزرع و الحصاد و عادة تؤدي في عمليات تطوعية أو تعاونية جماعية تسمى بالتوزيع كغسل القمح أو الصوف

__ أن تكون الأغنية الشعبية ملحنة: أي أن تكون عبارة عن منظومة شعرية مقفاة تدرج تحت ما يسمى بالشعر الشعبي بما يحويه من معاني شعبية و جرس موسيقي كامن في كلماتها لتجد طريقها إلى قلوب الناس و تصب هذه الكلمات في لحن بسيط معبر يتغنى به الفرد .

__ كذلك من خصائصها أن تكون مجهولة المؤلف أو معلومة: يكاد أن يكون هناك إجماع على أن الأغنية الشعبية مجهولة المؤلف و الملحن , فما الذي يمنع أن تكون الأغنية الشعبية مدونة معروفة المؤلف و الملحن , فالخلق و الابداع هبة من الله سبحانه و تعالى يهبها من يشاء من عباده , فمثلا الأغنية الشعبية المشهورة ب (حيزية) مؤلفها معروف و هو الشاعر الشعبي بن قيطون و قام تلحينها و غنائها عبد الحميد عباسية رحمه الله ثم ردها بعده جملة من الفنانين أمثال رايح درياسة و خليف أحمد و غيرهم لتصبح بعد ذلك من التراث الشعبي الذي يردده الناس في كل مكان و زمان و في كل المناسبات .

__ أن تكون منتشرة و متداولة: تتميز الأغنية الشعبية كونها منتشرة و متداولة بين الناس في المناسبات الخاصة و العامة و هذا شرط ضروري و إلا لما أصبحت الأغنية شعبية و انقطعت حلقات تواصلها و نساها الشعب و ضاعت و اندثرت و لم تعد تحسب على التراث الشعبي.

كبيرا من أجل أن يكون المردود وافرا و جيدا , فكانوا يذهبون الحقول مبكرين حاملين مناجلهم ,و العرق يتصبب من جباههم , و في بعض الأحيان ينظمون ما يسمى بالتوزيع إذ يجمع كل أبناء القرية الذين يعملون بكل جهد للقضاء على السنابل المتبقية في الحقل , و أثناء ذلك يرددون أشجى الأغاني بألحان عفوية , يشترك الجميع في أدائها و هذا من أجل بعث روح النشاط و التخفيف من الإحساس بالتعب فنجدهم يرددون مثلا:

شبان صغار طاحو في زرع مخبل¹²

حصدوه غمار و الصلاة على محمد

الله الله ربي و لا حال يدوم

لا ترقد الشيخ ولا يديك النوم

لا ترقد حالي ضرير و انا قلت انداوي

انداوي عند الطبيب و لاربي الغالي

أنا راكب الكروسة نشوف الجواد

أمحمد نبينا ..أسعدي بالشيخ كي جينا

هذه الأغنية تهدف إلى مدى شوق الفلاحين إلى حقولهم من أجل حصادها ليحصلوا على منتج وافر بعد جهد مضني, فنرى الفلاح يأمر أخيه و ينصحه بأن يذهب للعمل فإن الوقت قد حان و أن الله قد من عليهم بنعمة وافرة و أن هذا العام عام بركة و خير و ذلك في قولهم:

و تنحصر الوظيفة الأساسية لأغاني العمل في التسهيل و التخفيف من عناء العمل, و حث الجماعة على الاستمرار و الصبر في العمل بإيقاع موحد و متماسك, فالعمال و الفلاحون كثيرا ما يستعينون بالأغاني في أعمالهم اليومية أو الموسمية و لطول ساعات العمل يضطر المعني إلى أن يضيف إلى الأغنية كل ما يطرأ على ذهنه من الكلام ما دام هذا الكلام صالحا لأن ينساق مع لحن الأغنية¹⁰.

و تتنوع أشكال و أساليب أغاني العمل تبعا لنوع العمل الذي تصاحبه فمنها أعمال الصيد و رفع الأحجار و الصخور , و قطع الأخشاب , و هناك نوع خاص من أغاني العمل يتم في الحقول مثل البذر و الزرع و الحصد و تحفيز الدواب على المشي و الدوران , و منها ما يختص بعمل النساء مثل حمل الماء و طحن الحبوب¹¹ , و منها ما يرتبط بالتشييد و البناء و, و دفع السفن.

و تختلف أغاني العمل من منطقة لأخرى تبعا لاختلاف البيئة و الثقافة و الإنتاج, كما أنها تؤدي بدون آلات موسيقية , تتخللها في بعض الأحيان أوامر لأجل التحفيز على العمل ,و الحث عليه باعتباره مصدر قوت و قوة و وسيلة ضرورية لاستمرار الحياة, و من أنواع أغاني العمل نذكر ما يلي.

1_ أغاني الزرع و الحصاد:

كان الفلاحون و نساؤهم ينتظرون موسم الحصاد بفارغ الصبر خاصة و أنهم بذلوا جهدا

الأغنية الشعبية الجزائرية و دورها في التأصيل للأدب الشعبي موال أغاني العمل أنموذجا

تجنيدته بالقوة و هي التي كدت و اجتهدت في
تربيته حتى صار رجلا قويا .

و الاغنية الموالية تتحدث عن امرأة فقدت زوجها
و أبنائها في ريعان شبابهم فتقول :

أنا قاعدة نرحي سمعت قبر يدوي¹⁶

قلت نطل عليه فيه السيد بوعبسة

و يا قلبي حزين عليه

يا حزني على الزيتون الي طاح و شفتيه

يا حزني على وليدي كي لقطيب مديتو

حزني عليك يا بالات ولادي

كي أعطاوني العاهد و راحوا

و هذه امرأة أخرى تصور لنا عيشتها التعيسة
وسط أهل زوجها و كره أم زوجها لها فتقول:

ارحي ارحي رحايتي

و ارحي القوت

ارحي ارحي يا رحايتي

و خف لي بنت راقدة

و تنوض تبكي

و مكامش لي يسكتها

قم يا خويا الفلاح الصابة راهي جات¹³

قم أحصد ترتاح وقت الشدة فات

كما نجد أنهم في بعض الأحيان يحفزون
الدواب على المشي أو الدوران و من أمثلة ذلك
قولهم:

إقلب الحافر الله ينعل الكافر¹⁴

طرف طرف و الباكور خرف

ألوي ألوي باش تاكل الملوي

2_أغاني الطحن و نمط الحياة الأسرية:

لقد عانت المرأة الجزائرية إبان الاستعمار
الفرنسي العاشم , فاضطرت إلى العمل في بيوت
المستعمرين , و عملت أعمالا شاقة , و من هذه
الزاوية انطلقت المرأة لتعبر عن آلامها و همومها
و أحزانها , كمثل هذه المرأة التي تعبر عن
مصائبها إذ أخذ ابنها بالقوة إلى التجنيد الاجباري
في صفوف الجيش الفرنسي فتقول:

ربي سيدي واش عملت أنا ووليدي أه¹⁵

ربيتو بيدي و داتو بنت الروميا

جات الكليشة قلت أوليدي ما يميشيشي

جات المشينة و داتو بسيف علينا

فهذه المرأة تسأل الله سبحانه و تعالى عن
سبب أخذ ابنها من طرف الاستعمار الفرنسي و

لعجوز كرهتني و كرهتها

3_ أغاني جني الزيتون

عندما يحل موسم جني الزيتون تملأ أصوات الفلاحين معبرة عن فرحة قدوم هذا الحدث المهم و ذلك بالغناء للتخفيف من العمل الشاق و المتعب , و لاشيء يمنعهم من الجني إن حان وقته , و الأغنية التالية تعبر عن فرحة الفلاحين بقدوم موسم جني الزيتون إذ تقول:

الزيتون مدربي مدربي على بابو على بابو¹⁷

يفرح عمي و يعرض أحبابو و يعرض أحبابو

الزيتون مدربي مدربي على لبيوت

يفرح باب و يعرض خوتو و يعرض خوتو

الزيتون مدربي مدربي على القصبة

فموسم جني الزيتون هو موسم فرح و تعاون فنجد كل الأقارب تساند بعضها البعض في هذه الأيام و التي تعد أياما مباركة في نظرهم.

و في آخر هذه الورقة البحثية يمكن القول كخلاصة لما ذكر أن الأغنية الشعبية جزء لا يتجزأ من الشعب فهي تعبر عن المواقف و الأحداث بدقة و بكلمات شائعة و متداولة بين البشر , كما تعد عاملا مهما في حياتنا و تعبير عن هويتنا في مراحل مختلفة من الزمن , و قد تميزت أغاني و مواويل العمل بتنوع أشكالها و بساطة مفرداتها و تكرارها حتى تبقى راسخة في أذهان المجتمع

¹ _الكسندر هجرتي كراب , علم الفلكلور , تر أحمد راشدي صالح , وزارة الثقافة المصرية , مؤسسة التأليف و النشر , دار كاتب القاهرة سنة 1967 ص 231.
² أنولد هاووزر , فلسفة تاريخ الفن , تر رمزي عبدة ص 299
³ فوزي الغتيل , الأغنية الشعبية , مجلة الدوحة عدد 14 ص 40
⁴ إبراهيم الحميدي , أنثروبولوجيا الفنون التقليدية , ط 1 , دار الازرقية , 1984, ص 112
⁵ نبيلة إبراهيم , المرجع السابق , ص 273
⁶ الكسندر كراب , المرجع السابق , ص 133
⁷ آرنيسست فيشر , ضرورة الفن, تر ميشال سليمان , دار الحقيقة للطباعة و النشر , ط 1, 1970, ص 32
⁸ عبد القادر ناطور , الأغنية الشعبية في الجزائر , رسالة دكتوراه جامعة قسنطينة , 2009, ص 42_ 43
⁹ نبيلة إبراهيم , المرجع السابق , ص 231
¹⁰ نبيلة إبراهيم , المرجع السابق , ص 231
¹¹ حسين نصار , الشعر الشعبي العربي , المكتبة الثقافية , ط 1, 1962, ص 67
عبد القادر ناطور , الأغنية الشعبية في الجزائر , رسالة دكتوراه جامعة قسنطينة , 2009, ص 42_ 43¹²
¹³ نفس المرجع السابق ص 111_ 112
¹⁴ منقولة عن طريق السماع
¹⁵ عبد القادر ناطور , الأغنية الشعبية في الجزائر , ص 117
¹⁶ نفسه ص 121
¹⁷ نفسه , ص 122